براعة الاستهلال وحسن الخاتمة
في شعر زهير بن أبي سلمى

د. راجحة عبد السادة سلمان
د. أكرم عبد الله محمد
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

مقدمة البحث:

وبعد الحمد والصلاة على نبينا الأكرم أبي القاسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم وعلى صحبه وسلم تسليماً كثيراً).

يدرس هذا البحث جانبين في بنية القصيدة عند الشاعر زهير بن ابي سلمى المزني، الا وهما براعة الاستهلال و حسن الخاتمة.

وعصر زهير بن ابي سلمى عصر اكتمال القصيدة العربية ممثلة في تلك المقدمة الطللية وذكر ديار الأحبة الظاعنين والوقوف عند اثارهم وما خلّفوه حول واحات المياه والعيون والينابيع، وجوب الصحراء على ناقة تتمتع بكل صفات القوّة والصلابة لمقاومة حرّ الصحراء وقطع فيافيها واطرافها المترامية، وصولا الى ممدوح الشاعر ليحط رحاله بين يديه ذاكرا ومشيدا بخصاله وافعاله وشجاعته ومن ثمّ يخلص الى حكمته في الحياة وما خبره من تجاربها، وبيان الغاية والهدف من رحلته تلك، وهذا لا يكون الا في آخر القصيدة(1).

وشاعرنا ممن اتسم شعره بالمديح في اغلب ما قاله وما جاء في ديوانه، ولكنه مديح لم يكن من اجل غاية مادية لذاتها أو لنيل سمعة أو مكانة اجتماعية بقدر ما كان إشادة بممدوحيه، هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين وجد فيهما نعم السيدان والجوادان لما قاما به من تحمّل ديّات الحرب وفداء قتلاها في حرب داحس والغبراء، تلك الحرب الضروس التي كلّفت العرب كثيرا فاستطاع هذان السيدان إيقاف تلك الحرب فذاع صيتهما بكرمهما وجودهما وسماحتهما.

وكان زهير على صلة قوية بآل سنان بن أبي حارثة المرّي زعيم بني مرّة العظفانيين(2) وقد مدحهم ببواكير شعره- كما يتوضح لمن يقرأ ديوانه(3) وأكثر من ذكر خصالهم الحميدة وفعالهم الكريمة. وعندما توفي سنان- وكان ذلك قبل انتهاء حرب داحس والغبراء- تولّى هرم زعامة بني مرّة، فسعى هو وابن عمه الحارث بن عوف لحقن دماء الحرب وإطفاء نارها وإخماد سعيرها المضرمة.

وقد ترجم زهير موقف السيّدين في معلقته المشهورة والتي كانت مقدمة لقصائد طوال أُخر قالها في ممدوحه هرم[4] كما سيجلي البحث ذلك الأمر – وقد أسماها المؤرخون بالحوليات[5]، وقد مضى فيها زهير جميعا بحسن براعة الاستهلال سواء كان بمقدمة طللية أو غزليةً أو ما سوى ذلك بما تهيأ له من البراعة الفنية وأحكام اللغة الشعرية و البيانية.

براعة الاستهلال أو أحسن الابتداء أو براعة المطلع أو الابتداء وأياً كانت تسمية المصطلح فانها من حسن ما يبتدأ به الكلام أو القول أو الفن سواء كان شعرا أو نثرا.

وقد تناوله الخطيب القزويني[6] ضمن تناوله لفن البديع وجعله من خاتمة فن البديع الذي ضمن فيه القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها والقول في الابتداء والتخلص والانتهاء. وقال انه ينبغي للمتكلم ان يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكون اعذب لفظا، واحسن سبكا واصحّ معنى.

فالابتداء أول ما يقرع السمع، فان كان كما ذكر اقبل السامع على الكلام فوعى جميعه، وان كان بخلاف ذلك اعرض عنه ورفضه وان كان في غاية الحسن. واختار قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب   وليلٍ أُقاسيهِ بطئ الكواكبِ

وقول ابي الطيب:

اتظنّني من زلّةٍ أتعتّبُ   قلبي أرقُّ عليك ممّا تحسبُ

وقل: ((وينبغي ان يجتنب في المديح ما يُتطير منه، فانه قد يتفاءل به الممدوح أو بعض الحاضرين)) ولما أنشد ذو الرمة هشام بن عبد الملك قصيدته البائية:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ

فقال هشام: بل عينك....

وقيل: لما بنى المعتصم بالله قصره بالميدان وجلس فيه ،انشده إسحاق الموصلي:

يا دارُ غيَّركِ البلى ومحاكِ   يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ

فتطيّر المعتصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر.

ومن المتأخرين في العصر الحديث المرحوم الهاشمي في جواهر البلاغة ذكر حسن الابتداء أو براعة المطلع: "هو ان يجعل أول الكلام رقيقا سهلا، واضح المعاني، مستقلا عما

بعده، مناسبا للمقام، بحيث يجذب السامع إلى الاصغاء بكليته، لأنه أول ما يقرع السمع وبه يعرف مما عنده... وتزداد براعة المطلع حسناً اذا دلت على المقصود بإشارة لطيفة، وتسمى براعة استهلال: وهي ان يأتي الناظم أو الناثر، في ابتداء كلامه بما يدل على مقصوده منه بالإشارة لا بالتصريح... ويعني أيضا براعة الطلب، هي أن يشير الطالب الى ما في نفسه، دون أن يصرّح بالطلب، نحو قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} (هود/45) إشارة إلى طلب النجاة لأبنه"(7).

أما حسن الخاتمة- وترد حسن الختام وحسن الانتهاء- وكلها تعني ((الانتهاء)) فالانتهاء: النهية والنهاية: غاية كل شيء وآخره، والنهاية: كالغاية حيث ينتهي إليه الشيء وهو النهاء. يقال: بلغ غايته، وانتهى الشيء وتناهى ونهّى: بلغ غايته- كما جاء في اللسان مادة (نهي). وقال ابن رشيق:" وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة و آخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله ان يكون محكما لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له، وجب أن يكون الآخر قفلا عليه... ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة... وقد كره الحذّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء..."(8). وجاء في نهاية الأدب أن حسن الختام أن آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستعذباً حسناً لتبقى لذته للاسماع(9).

وتحدّث القاضي الجرجاني عن حسن الخاتمة وقال: "والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدها الخاتمة، فأنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء"(10).

فالانتهاء وجودة القطع وبراعة المقطع وحسن الخاتمة وحسن الختام، كلها فن واحد الهدف منه أن يحرك النفس عند ختام القصيدة أو الكلمة ليبقى أثرها عالقا بالنفوس(11).

وجاء في كتاب الإيضاح للقزويني: ((الانتهاء لأنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس، فان كان مختارا كما وصفنا جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير، وان كان غير محتار كان خلاف ذلك، وربّما أنسى محاسن ما قبله، فمن الانتهاءات المُرضية قول أبي نؤاس:

وإني جدير- إذ بلغتك- بالمنى وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فإنْ تولني منك الجميلَ فأهلُه وإلاّ فأَني عاذر وشكورُ(12)

وورد في جواهر البلاغة: ((حسن الانتهاء ويقال له ((حسن الختام)) هو ان يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى، مُشعراً بالتمام حتى نتحقق براعة المطلع

بحسن الختام، إذ هو آخر ما يبقى منه في الإسماع وربما حفظ من بين سائر الكلام لقرب العهد به، يعني: أن يكون آخر الكلام مستعذباً حسناً، لتبقى لذته في الأسماع مؤذناً بالانتهاء، حيث لا يبقي تشوقاً إلى ما وراءه))(13).

الاستهلال في شعر زهير

تكاد غالبية قصائد زهير تستهل بالمقدمات الطللية(14)، ومنها ما مهّد له بمقدمة غزلية(15). وجاءت قصيدة واحدة استهلّها بذكر المشيب(16)، وواحدة أخرى استهلها بالظعن(17). سنقف عندها بشيء عن الإطالة مشيرين الى الناحية النفسية التي استحكمت التجربة الشعرية عند زهير.

وبنية الاستهلال في شعر زهير تشير إلى تجربة الشاعر النفسية والى الواقع الاجتماعي والظرف الداعي لبروز قصائده، فضلا عن الموروث الثقافي الذي يتمتع به الشاعر ونظرته إلى الكون من حوله(18). ذلك بسبب العقد الاجتماعي الذي ربط الشاعر نفسه به وسخر فنّه وأدبه لخدمة المجتمع والقبيلة التي ينتمي اليها. فالشاعر شاعر القبيلة وفارسها المتكلم، وشعره جزء من ديوان العرب ديوان المآثر والبطولات والمفاخر(19).

وأول ما نأتي اليه في استهلالات زهير معلقته المشهورة والتي قالها بعد انتهاء حرب داحس والغبراء:

أمِن امِّ اوفى دمنة لم تَكلَّمِ — بحومانةِ الدرّاجِ فالمتثلّمِ
ودارٌ لها بالرَّقمتينِ كأنّها — مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ معصمِ
بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلفةً — وأطلاؤها يَنهضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ
وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً — فلأياً عرفتُ الدارَ بعد التوهّمِ
أثافيّ سُفعاً في مُعرَّسِ مِرْجَلٍ — ونؤياً كَجِذْمِ الحوضِ لم يَتثلَّمِ
فلما عرفُت الدارَ قلتُ لربعِها — ألا عِمْ صباحًا أيّها الربعُ واسْلَمِ(20)

فهذه المقدمة الطللية هي دأب الشاعر في عامة قصائده التي أطلقها بخاصة في آل سنان المرّي وابنه هرم، فالصورة الطللية عنده تبدو عملا فنياً متقناً يستمد براعته من جهد الشاعر. ولكن هل يُمثّل حقيقةً معاناةً في حياة الشاعر، فالأمر ليس كذلك، إنّما هو تساؤل تقليدي يحاول فيه الشاعر استنطاق تلك الأحجار الجوامد من أجل بعث الحياة فيها، وهو على يقين أنها لن تُجيبه أو تردّ عليه، وسبيل الشاعر هذا هو الخطوة الأولى في بناء المقطع الشعري وبعث مواطن الذكريات بين تلك الأماكن ((الحومانة، المتثلّم، الرقمتين)) التي ما تزال على صمتها. ولكننا لا نلحظ فناءً

كاملاً لذلك الطلل بل نراه يعيد اليه الحياة بمراجيع الوشم(21). على الرغم من ان هذا لا يتفق مع صورة الطلل الفاني والبالي والعمر المنصرم.

ويؤكد زهير على ترّسخ الحياة في طلله وذلك عندما يضفي صورة أخرى من صور الحياة لنفي الشك بعدم وجود الحياة في الطلل، تلك هي صورة العين والآرام وأطفالها الصغار وحركتهن وتنقلهن، لأنه قد استحضر الحياة واستشعر الأمن والسلام بعد انتهاء تلك الحروب الضروس. وهو أمر حتم عليه أن يرى أماكن الحرب الخراب قد عمّها السّلام والحياة بعد انتهائها لتستحيل الحياة إلى صور فرح وبهجة بعد مرور ذلك الزمن السحيق المقيت الذي عاث بأماكن الأحبة التي لم يتوهم الشاعر بمعرفتها بصورها القديمة فيراها وكأنّ يد الدهر لم تأت عليها، فالأثافي ما تزال سوداء وهي مكان القدور والنيران، لذا ينطلق مناديا من القلب بصوت الفرح واللهفة ليقول لذلك الربع إلا انعم صباحا واسلم ليهيئ المقطع الشعري إلى مقطع الظعن الذي يحمل أجمل الألوان وأبهى الحلل فيما ألقت عليه تلك الحسان وكأنّهن في احتفالية الحياة والربيع من دون أن يستشعر شيئا من الحزن والفراق.

وبعد ان يعرض الشاعر لمديح السيدين وذكر صور الحرب المخيفة الماحقة والطاحنة– وهذه المقاطع ليست بصدد البحث هاهنا– نراه ينتقل نقلة قلّما ينتقل إليها شاعر لختام قصيدته، إذ يختمها بمقطع حكمي امتدّ فيه نفسه إلى ثلاثة عشر بيتاً حتى لتبدو أول الأمر بعيدة نسبياً عن الطرح الموضوعي لمطولته.

فأول ما يبدأ بتلك الأبيات:

سئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يعشْ   ثمانينَ حولاً لا أبالَك يَسأمِ
رأيتُ المنايا خَبطَ عشواءَ مَن تُصبْ   تُمتْهُ ومَن تُخطِئ يُعمّرْ فيهرَمِ
وأعلُم علَم اليومِ والأمسِ قَبلَهُ   ولكنّني عن علمِ ما في غدٍ عَمِي(22)

فيظهر من هذه الأبيات أن العمر قد امتدّ بزهير إلى عمر الثمانين فيبدو شيخا قد عركته تجارب الحياة وأن يد المنية قد أخطأته فامتد به العمر ، ويرى كأنّ المنايا تخبط الناس عشوائياً فمن تلقه بطريقها تمته وإلا فإنها تخطئ هدفها لأنها لا تمشي مشياً سوياً معلوم الخطى، لذا فالذي يعمّر قد أخطأته يد المنون فهرم وبات يسأم حياته، لأنّ طول الحياة بالإنسان يؤدي به فعلاً إلى السأم منها ومن متاعبها ومنغصاتها.

ولكن زهيراً لا يدع طول العمر مدعاةً لهرمه وختله ما لم يظهر لنا أن الأمر ليس كذلك، لأنه قد اكتسب من الحياة فعلا ما أفاده من علمها وعلم أيامها مادام قد جرّب الأمور وخاض مضائقها فبلغ مرتبة العلم بالأشياء ليُهيئ للحكمة من صنيع السيدين الماجدين اللذين سعيا لإيقاف الحرب فكانا كذي فضل لم يبخل بفضله على قومه، وكانا كمن جعل المعروف من دون عرضه فوفّر عرضه وصانه واتقّى مذّمة الدهر، وذلك في بيتيه حيث يقول:

ومَنْ يكُ ذا فضلٍ فيَبخلْ بِفضْلِهِ   على قومهِ يُستغْنَ عنُه ويُذْمَمِ
ومَنْ يَجعلِ المعروفَ مِن دونِ عِرضِه   يَفِرْهُ وُمَن لا يتَّقِ الشَّتْمَ يَشْتَمِ(23)

أما طلله الآخر الذي يحاول استنطاقه بعد رحيل الأهل عنه يوحي بأنه ما يزال آهلاً لم يتغير شيئ من معالمه، ولكن على الرغم من ذلك فأن الأحبة قد استبدلوه بدار يمانية يرعى فيها مطر الخريف، أي ما ينبته ذلك المطر بعد نزوله فتكون الحياة أثرى بذلك المطر، ليقرن بين ندى الأرض التي سقاها واخضرّ زرعها بندى ممدوحه وجوده:

فاستبدلتْ بعدَنا داراً يمانيةً   ترَعى الخريفَ فأدنى دارِها ظَلِمُ
إنّ البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولـ   ـكنَّ الجوادَ على عِلاّتِهِ هَرِمُ(24)

ليكون حسن الختام بما تورثّه ممدوحه من المجد العتيد الذي جُبل عليه لا بسبب الرياسة والزعامة التي آلت إليه، فيراه كالسّيف الصّارم الذي لا يخزي صاحبه وسط السيوف كنايةً عن شدة وطيس الحرب، ولا يستطيع أحد النيل منه:

كالهندوانيِّ لا يُخزيك مشهدُهُ   وسطَ السّيوف إذا ما تُضرَبُ البُهَمُ(25)

وزهير لا يطيق الوقوف عند أطلاله ما دام يراها ذكرى ماضٍ ولّى بما كان يحمله من أسى للقوم بسبب الحرب المقيتة، وما دام يقف مادحاً سيد الجود والكرم هرم بقصائد لا يرى لمقدماته الطللية بديلا ما دامت الحرب قد ولى زمانها وعهدها، ليعقد مقارنة للحياة بين الماضي– الموت– وبين الحاضر– ممدوحهم سابغ نعم الحياة على القوم بسبب دفع ديّات القتلى وإيقاف نزيف الحرب التي عركت القوم.

فنرى زهيراً قد عدّى عن طلله ولم يقف فيه، بل كان في عجلة من أمره ليصل إلى ممدوحه، فما أن قال:

لمَنْ الدّيارُ بُقنّا الحِجْرِ؟   أقْوينَ مِن حِجَجٍ ومن شَهْرِ
لِعبَ الزَّمانُ بها وغَيّرَها   بعدي سَوافِي المورِ والقَطْرِ(26)

نجده في عجلة فيقول:

دَعْ ذا وعِدّ القَوْلَ في هَرِمٍ   خيرِ البُداةِ وسيّدِ الحَضْرِ(27)

حتى إذا ما جال في الثناء على ممدوحه وفضائله ومواقفه الجليلة الخالدة في حسم نزاع القوم، يأتي في آخر مطاف مديحه لينهي قصيدته بقوله:

والسترُ دُونَ الفاحشاتِ، وما   يلقاكَ دُونَ الخَيرِ من سِتْرِ(28)

فالستر والحجاب يكون دون الفواحش من الأعمال بسبب ورع ممدوحه وتقاه، اما في عمل الخير فلا حجاب ولا أستار تكون بين الرجل الفاضل وبين عمل الخير. انها حكمة الحياة التي يجدها زهير والتي تكشفت له بسبب فضائل الممدوح وخلقه الكريم وسماحته ونداه.

ويحكى أن عمر بن الخطاب (ﺭ) لما انشد هذا البيت قال: ذاك رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)(29).

ويشابه براعته في طلله السالف هذا براعته في طلل آخر في قلة مكثه عند الطلل وتعجله للوصول الى ممدوحه هرم بن سنان لأنّه أجرى كل مقدماته الطللية في شأن المديح والثناء على هرم أو على أبيه سنان. ونعني بطلله ما قاله:

غشيتُ دياراً بالنّقيعِ فثهمَدِ   دوارسَ قد اقوينَ من أُمِّ مَعْبَدِ
أربَّتْ بها الأرواحُ كَلَّ عَشيّةٍ   فلم يبقَ إلاّ آلُ خَيمٍ مُنضَّدِ
وغيرُ ثلاثٍ كالحَمامِ خَوالدٍ   وهابٍ مُحيلٍ هامدٍ مُتلبِّدِ
فَلمّا رأيتُ أنّها لا تُجيبُنِي   نَهضْتُ إلى وَجناءَ كالفحلِ جَلْمَدِ(30)

فالشاعر في هذه القصيدة- أيضاً- أراد أن يرمز إلى هذه الديار بالخلود بذكر تلك الأحجار أو الأثافي والخيم والرماد، وكما يئس من سؤالها بإجابتها إيّاه- وإن كان يدرك ذلك حقيقةً لأنها خرساء صمّاء- رأى أن لابد من النهوض على ناقة وجناء قوية صلدة على مواجهة تبعات مقطع الرحلة وصولاً إلى الممدوح(31).

حتى إذا ما اكتملت لدى الشاعر تلك الرحلة ومن ثم الثناء على ممدوحه، ينتقل بنا إلى حسن خاتمة القول بحكمة يطلقها متماشية مع عمل الخير الذي قام به ممدوحه والذي خلّده بين الخالدين، وجعل جزاءه حمده المتواصل بذكره بين الناس على مدى الدهر، فيقول:

فلو كان حمد يُخلدُ الناسَ لم تَمُتْ   ولكنَّ حمدَ الناسِ ليس بِمُخْلِدِ
ولكنَّ منهُ باقياتٍ وراثةً   فأورثْ بَنيكَ بعضَها وتَزوَّدِ

تزوّدْ إلى يومِ المماتِ فأنَّهُ   ولو كرهتْهُ النفسُ آخِرُ مَوعدِ(32)

فالعمل الصالح هو الذي يخلّد صاحبه، وجاء في القران الكريم: {**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**}(33).

وتظلّ تجربة الحياتية وخوض معتركها ضالة الشاعر لئلا تذهب أيامها سدى من دون ان يستشعر انه قد أفاد منها وخبرها. فنرى زهيراً يمتطى دابّة مسرعة ذات مواصفات تتسم بالقوة وحسن الأداء ليسبق بها الزمن وأيام الصبا ان تدركه فلا يجني من زمانه شيئاً. فيعرض صراعه مع الزمن كي لا يعركه وينتصر عليه من دون أن يحقق غايته في الحياة بحسن الخلق والعمل الصالح وحبّ الصديق وكفّ الأذى عنه، وكأنّه يقدّم لنا حكمة جديدة لتجربة جديدة في حياته فيخوض غمارها برحلة تشعرنا بمبدئية الشاعر وأَثْرتِه أنْ يترك لنا أثراً واضحًا من تلك الرحلة بما يأتي به من أبيات حكمية تصل إلى تسعة أبيات من بين تسعة عشر بيتا هي مجموع أبيات قصيدةٍ له– شاهد حديثنا هاهنا– والتي يستهلّها بالقول:

ويوم تلافيت الصبا ان يفوتني   برحب الفروج ذي محال موثّق(34)

فهو يخشى ان يفوته الصبا والشباب ويسبقه فلا يستطيع عندئذ إدراكه، فيقدم لحياته بالخير والعمل الصالح الذي يتضح بما أوتي من حكمة يطلقها لسانه قائلا:

أبِيتُ فلا أهجُو الصديقَ ومَن يَبعْ   بعرضِ أبيهِ في المعاشرِ يُنفِقِ
ومن لا يُقدّمْ رِجلَهُ مُطمئنَّةً   فَيُثبتَها في مستوى الأرضِ تَزْلَقِ(35)

وختام القصيدة:

وفي الحلم إدهانٌ وفي العفوِ دُربةٌ   وفي الصّدقِ مَنجاةٌ من الشرِّ فاصدُقِ
ومَن يلتَمسْ حُسنَ الثناءِ بمالِهِ   يَصُنْ عِرضَهُ مِن كلِّ شَنعاءَ مُوبِقِ
ومَن لا يَصُنْ قبلَ النوافذِ عِرضَهُ   فيحرزْهُ، يُعرَرْ بهِ ويُخرَّقِ(36)

فلا نرى زهيراً كمن وصفه الله في كتابه الكريم: {**يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**}(37) الذي لم يكترث لايامه وحياته كيف تمضي وتسرع بها الخطى، بل كان زهيرا نعم الرجل الحكيم، بل الكريم، ذو الخلق القويم الذي احبّه ووجده في مدوحيه.

وما تضمنته أبياته– هاهنا– من حكم لا تبتعد عن تلك التي قدمنا لها بالقول في معلقته– بداية بحثنا هذا–.

وتظهر براعة الاستهلال عند زهير في قصائده في محاور أو مقاطع غير مقطع الطلل أو الرحلة، إذ نجد للمرأة حضوراً آخر في محاور أُخر من بنية القصيدة المكتملة لدى زهير، حتى لتبدو المرأة عنصراً أساسيا من عناصر تشكيل الحدث الشعري. ولعلّ من أغزر لوحات الافتتاح احتضاناً لصورة المرأة لوحة المشيب التي تحقق مدلولها بذاتها(38) والتي يُظهرها الشاعر في حوار صريح أو خفي يشخص معاناته في تأمل أثر الزمن في إعراض المرأة عنه بسبب إسراع المشيب إليه وهرمه وما يُخلفّه ذلك من انطباع سلبي في نفس العاذلة فتصدّ عنه.

فمما أفتتحه بالمشيب قوله:

صَحا القلبُ عن سلمى وأقْصرَ باطِلُهْ   وعري أفراسُ الصّبا ورواحِلُهْ
وأقصرتُ عما تعلمين وسُدِّدَتْ   عَليَّ سِوى قصدِ السبيلِ مَعادِلُهْ
وقال العذارى إنّما أنتَ عمُّنا   وكانَ الشّبابُ كالخليطِ نُزايلُهْ
فأصبحتُ ما يعرفْنَ إلاّ خَليقَتي   وإلاّ سوادَ الرّأسِ والشيبُ شامِلُهْ(39)

فهذه المقدمة تعدّ لوحة نادرة في الشكوى إذ استبق بها الطلل، لانه جاء بذكر الطلل في البيت الخامس من القصيدة. وهي تمثل معاناة حقيقية بعد أن أمتدّ به العمر حتى سأم الحياة، ويمكن أن يكون زهير قد أتخذ ذلك منفذاً للتعبير عن الحسرة على ما ضاع من ذكريات الأمس الراحل.

فقد استحكمت ظروف شتى في أداء زهير لهذا النمط من الاستهلال والتقديم، ذلك بسبب الطبيعة الموضوعية للقصيدة التي اتّجه بها إلى مديح حصن ابن حذيفة الفزاري وقد تولّى قيادة غطفان بعد أبيه، فاقتضى ظرف القيادة أن يواجه زهير مداخلات صعبة يؤول فيها إلى ذخيرة من الحكمة البالغة والرجولة النادرة، والذي يشير إلى أنه لم تعد المرأة شاغل الشاعر الأهمّ وهو بصدد تغيير جذري في حياته(40).

لذا لا نجد اكتراثاً من لدن زهير لقول تلك العذارى وصدّهن عنه لأنه مشغول بممدوحه ذي الخلق الفذّ والمقدرة الحكيمة في صنيعهِ مع أحلاف قومه. إذ لم يكن إلاّ رجلاً كريماً ذا عزيمة وهمّة بالغة، وانه ذو سماحة وجود لا تتلف الخمر ماله، بل يتلفه في العطاء وأعمال الخير، ويرى من الحري أن يرتحل إلى ذلك الممدوح بكلّ نفس مطمئنة لا تهاب الصحراء ولياليها غير الآمنة مادام سيجد الأمن عند ممدوحه إذا ما سار إليه وأسرى في ذلك الليل، حتى ليختم قصيدته بذكر فضائل الرجل الجواد وطفح نداه من كرمه حتى ليُكرم سائله متهلّلاً مستبشراً بقدومه إليه وكأنّ السائل هو الذي سيُعطيه، فيقول:

تراه إذا ما جِئْتَهُ مُتهلّلاً   كأنكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائلُهْ
وذي نَسَبٍ ناءٍ بعيدٍ وصَلْتَهُ   بمالٍ وما يدري بأنّكَ واصِلُهْ(41)

ولابد لنا في مبحثنا هذا من ختامٍ للقول بشأن براعة زهير في استهلالاته لقصائده ونعني بذلك قصيدته التي قالها في بني الصيداء الذين استاقوا إبلاً له وعبداً أسروه. إذ يتصدّى فيها زهير للحارث بن ورقاء، فيصوّر حال القوم وارتباكهم فيما أقدموا عليه، أيبقون عليه أم يردون الإبل والغلام إلى صاحبها.

فيفتتح قصيدته بلوحة ظعن تظهر ما أصاب القوم من الاضطراب وتأخّر رحلتهم والانطلاق بها، ووقتها أن تمضي مبكرة منذ الصباح(42)، فكان للوحة أن اتخذت مجرى مبايناً للوحات الظعن المعهودة وبخاصة في مطوّلته من حيث نشر الألوان والحلل الزاهية والنساء الحسان والحركة المنسابة وهنّ يقطعن طرق الصحراء.

فيقول واصفاً ظعن بني الصيداء:

بان الخليط ولم يأووَا لَمِن تَركُوا   وزَوّدُوكَ اشتياقاً أيّةً سَلكُوا
رَدَّ القيانُ جمالَ الحيِّ فاحتملُوا   إلى الظهيرةِ أمرٌ بينهم لبكُ(43)

حتى إذا ما أدت أبياته غرضها في بني الصيداء يتوجه إليهم في الهجاء المقذع ان لم يردوا ما انتهبوه منه وقد عرّضوا كرامته للاهانة، قائلا:

يا حارِ لأَرْمَينْ مِنكم بداهيةٍ   لم يَلقَها سُوقةٌ قبَلِي ولاَ مِلِكُ(44)

ويختمها بعد ذلك ببيت يقول فيه:

ليأتينك منّي منطقٌ قَذَعٌ   بَاقٍ كما دَنَّسَ القُبطيّةَ الوَدَكُ(45)

وتظلّ كافية زهير هذه تجربة نادرة في شعره مضى فيها وهو يخوض تجربة شعرية مثقلة بالمعاناة، على أحسن ما قاله من شعر في ديوانه كلّه مما انبثق عن قريحته في لحظات إلهامٍ إبداعي أصيل أدّى به إلى خمسة نماذج شعرية، اثنان منها في هجاء بني الصيداء(46) وثلاثة في شكر الحارث بن ورقاء ومديح قومه(47) بعد أن ردّوا عليه إبله وغلامه.

الخاتمة

تجلّت لنا فيما تقدم من البحث في شاعرية زهير براعته الفنية في ابتدائه بقصائده مع جميل حسن الخاتمة الملائمة لما ابتدأ به من موضوع القصيدة العام.

وزهير شاعر عرف بالحكمة التي خبرها من الحياة وأقامها مثالاً لما ينظم من قول شعري يشيع فيه كلّ مباهج الحياة وبخاصة فيما قاله بعد انتهاء حرب داحس والغبراء على يد السيدين المصلحين هرم بن سنان والحارث بن عوف فما نهض به هذان السيدان لحقن الدماء ودفع الديّات، كان الأمر ان أيقض في نفس زهير كلمات الثور والشاعرية التي راح يحكم بها قصائده رابطاً حسن الختام بالمطلع بحيث لا ينبو أحدهما على الآخر مع توافقهما ومسيرة القصيدة الداخلية من حيث البناء الفني وتتبّع الرحلة وأجزائها.

إنه بحق شاعر أحكمته الحياة فأخرج لنا شعراً تلتذّه النفوس التي تهفو الى الخير والصّلاح، فجعلنا ننهل من شعره فيض الحكمة والحياة الهادئة التي عمّها شعره بالسّلام بعد انتهاء الحرب وزوال شبحها ونشر صور بهيجة ملأى بألوان جميلة شتى.

هوامش البحث:

(1) ينظر: مقدمة الشعر العربي. ادونيس. مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية (بحث)

(2) ينظر: الأغاني: 290/10 وما بعدها.

(3) ينظر: شعر زهير: القصائد 2، 20، 30، 32، 38، 44.

(4) ينظر: شعر زهير: القصائد1، 3، 4، 9، 10، 12، 19، 50، 52.

(5) ينظر: البيان والتبيين: 2، 109–113. الخصائص: 330/1. الشعر والشعراء: 17/1، 61. الشعر الجاهلي نشأته وتطوره (بحث) 181–182.

(6) الإيضاح: 556/2، 591–595.

(7) جواهر البلاغة: 419–420.

(8) العمدة: 239/1–241.

(9) ينظر: نهاية الأرب: 135/7، وخزانة الأدب: 460.

(10) الوساطة: 48.

(11) معجم المصطلحات البلاغية: 326/1 – 329.

(12) الإيضاح: 598/2 – 599.

(13) جواهر البلاغة: 421.

(14) ينظر: شعر زهير: القصائد 1، 9، 10، 11، 12، 19، 20، 32، 44، 50.

(15) ينظر: شعر زهير: القصائد: 2، 3، 4، 24، 43، 48.

(16) ينظر: شعر زهير: القصيدة (3).

(17) ينظر: شعر زهير: القصيدة (5).

(18) ينظر: نصوص من الشعر العربي قبل الإسلام: 157. الاستهلال فن البدايات: 57–63.

(19) ينظر: حركات التجديد في الادب العربي: 24.

(20) شعر زهير: 9–11.

(21) وينظر شعر زهير: 148 في لوحة مماثلة اخرى.

(22) شعر زهير: 25.

(23) شعر زهير: 26.

(24) شعر زهير: 104.

(25) شعر زهير: 113.

(26) شعر زهير: 114.

(27) شعر زهير: 115.

(28) شعر زهير: 120.

(29) شعر زهير: 121– في شرح البيت المذكور.

(30) شعر زهير: 177 – 178.

(31) ينظر: شعر زهير: القصيدة (32) في رحلة اخرى مماثلة.

(32) شعر زهير: 190 – 191.

(33) الكهف/ 46.

[34] شعر زهير: 258.

[35] شعر زهير: 260.

[36] شعر زهير: 262.

[37] الفجر: 24.

[38] ينظر: نصوص من الشعر العربي: 26.

[39] شعر زهير: 45 – 46.

[40] ينظر شعر زهير: القصيدة (2) في تجربة مماثلة متصديا للمرأة معرضا عنها الى الممدوح.

[41] شعر زهير: 57.

[42] ينظر: دراسات نقدية في الأدب العربي: 91.

[43] شعر زهير: 78.

[44] شعر زهير: 87.

[45] شعر زهير: 89.

[46] ينظر: شعر زهير: 94-99.

[47] ينظر: شعر زهير: 202 – 204. شعر زهير: 57.

مصادر البحث:

1. **القران لكريم**
2. الاستهلال فن البدايات في النص الادبي، ياسين النصير، ط دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1993م.
3. الاغاني. ابو الفرج الاصفهاني (ت 356هـ). ط دار الكتب، القاهرة، 1961م.
4. الإيضاح في علوم البلاغة. الإمام الخطيب القزويني (ت 739هـ). شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي. ط5 دار الكتب اللبناني، بيروت 1400 هـ-1980م.
5. البيان والتبيين. الجاحظ (ت 258هـ). ط دار الحلبي. دمشق.
6. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. احمد الهاشمي ط 12 دار احياء التراث العربي، بيروت.
7. حركات التجديد في الأدب العربي. د. يوسف خليف. ط دار الثقافة، القاهرة، 1975م.
8. خزانة الأدب. عبد القادر البغدادي (ت 1093 هـ). ط بولاق، مصر
9. الخصائص. ابن جني (ت 392 هـ) ط. القاهرة 1913.
10. دراسات نقدية في الأدب العربي. د. محمود عبد الله الجادر. ط دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1990م.
11. شعر زهير بن ابي سلمى. صنعة الاعلم الشنتمري. تح/ فخر الدين قباوة. ط3 بيروت، 1400هـ، 1980م.
12. الشعر والشعراء.ابن قتيبة (ت 276 هـ) تح/ احمد محمد شاكر. ط دار المعارف بمصر.
13. العمدة. ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) تح/ محمد محي الدين عبد الحميد. ط 4 دار الجيل، بيروت، 1972.
14. معجم المصطلحات البلاغية. د. احمد مطلوب، ط المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1403 هـ-1983م.
15. مقدمة الشعر العربي. ادونيس. ط دار العودة، بيروت.
16. نهاية الأرب. النويري. ط القاهرة .
17. نصوص من الشعر العربي قبل الإسلام. دراسة و تحليل. د. نوري حمودي القيسي، د. محمود الجادر، د. بهجت الحديثي. ط دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1990م.
18. الوساطة بين المتنبي وخصومه. القاضي الجرجاني (ت 392هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. ط مصر 1966م.

الدوريات:

1. الشعر الجاهلي نشأته وتطوره. د. يوسف خليف. مجلة عالم الفكر مجلد 4 عدد 4، 1974 الكويت.
مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية. د. يوسف خليف. مجلة المجلة المصرية. السنة التاسعة العدد (100) 1965م.